قراءة نقدية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال

أ. د. مجيب الرحمن *

ملخص البحث:

تُعَدُّ رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني الطيب صالح واحدة من أبرز الأعمال الأدبية في الأدب العربي المعاصر. صدرت الرواية لأول مرة في عام ١٩٦٦، وسرعان ما أثرت في المشهد الأدبي العربي والعالمي بفضل تناولها العميق للقضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية. تدور أحداث الرواية حول بطلها مصطفى سعيد، الذي يعود إلى قريته في السودان بعد فترة من الدراسة والحياة في أوروبا. عبر رحلة مصطفى، يستعرض صالح صراع الهوية والتأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب، مقدماً تأملات حول الاستعمار، والغرب، والانتماء. تعكس الرواية التعقيدات النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمعات في مواجهة التغيرات الثقافية والاقتصادية. من خلال لغة سردية غنية ورموز متعددة، يُقدّم الطيب صالح نصاً أدبياً يفتح أبواباً واسعة لفهم التوترات الكامنة بين الحضارات، فضلاً عن إلقاء الضوء على تجارب الإنسان في عالم متغير. هذه الدراسة النقدية ستسعى إلى تحليل الأبعاد المختلفة للرواية، متناولاً كيف يجسد الطيب صالح التفاعلات الثقافية والصراعات الذاتية بأسلوب يجمع بين الواقعية والرمزية.

الكلمات / المصطلحات المفتاحية: رواية ما بعد الاستعمار، القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية، الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، صراع الهوية، الأصالة، العلاقة بالآخر، المعاصرة، الاستعمار ، القامع والمقموع، الشمال والجنوب، الانتماء، الاغتراب، التوازن بين العقل والقلب، أزمة الهجرة، صراع التقليد مع الحداثة، الاستشراق.

* أستاذ ورئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

إن الرواية المتميزة للروائي السوداني الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" التي نُشرت للمرة الأولى في عام ١٩٦٦، قد نالت منذ صدورها اهتماماً عالمياً واسعاً وأثارت استجابات نقدية متعددة لا حصر لها. فقد نالت الرواية اهتماماً كبيراً من خلال الأبحاث والكتب والمقالات التي تناولتها باللغات العربية والأوروبية، وأحرزت شهرة كبيرة جعلت من كاتبها يُعتَبر "عبقري الرواية العربية". كما اختيرت كأفضل رواية عربية من قبل الأكاديمية الأدبية بدمشق، واحتلت مكاناً بين أفضل مائة رواية في العالم. وقد نال الكاتب جائزة ملتقى القاهرة للإبداع الروائي في عام ٢٠٠٢، وأصبحت الرواية جزءاً من المقررات الدراسية في العديد من الجامعات حول العالم، وعدت الرواية من الروايات البارزة في فئة أدب ما بعد الكولونيالية.

فما الذي يجعل هذه الرواية الصغيرة الحجم، التي لا تتجاوز مائتي صفحة، تجذب اهتمام القراء والنقاد إلى هذا الحد؟ ولماذا تستمر الرواية في إثارة الدراسات والأبحاث حول أبعادها القومية والفكرية والدلالية حتى بعد مرور اكثر من خمسين عاماً على صدورها؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن في قراءة الرواية نفسها، حيث يكتشف القارئ الثراء الاستثنائي والفريد الذي تتميز به، ويلاحظ أنها لم تفقد جدتها وحيويتها وعمق تأثيرها رغم مرور خمسة عقود.

ملاحظاتي حول الرواية قد لا تضيف جديداً إلى الأبحاث الحالية، لكنها تعكس انطباعاتي الشخصية وتفاعلي مع العمل. قرأت الرواية أكثر من عشر مرات منذ أن أهداها لي صديق أثناء دراستي للماجستير في جامعة جواهر لال نهرو. انتهيت من قراءتها لأول مرة في ليلتين، ولم أستطع وصف مشاعر الإعجاب العميقة التي شعرت بها حينذاك. كل مرة أقرأ فيها الرواية أجد لذة

جديدة وأعتقد أنني حفظت عباراتها عن ظهر قلب. ما يميز هذه الرواية، في رأيي، هو الحيوية السردية التي تنبض بعفوية وتلقائية، بالإضافة إلى اللغة الشاعرية المقتدرة وعنصر التشويق الذي يجذب القارئ للغوص في أعماقها.

في الرواية، يسعى الراوي إلى الكشف عن اللغز الذي يكتنف شخصية مصطفى سعيد، البطل الذي يظهر في قرية نائمة على ضفاف النيل في شمال السودان تُدعى ود حامد. بعد غياب دام سبع سنوات قضاها في إنجلترا للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي، يعود مصطفى سعيد إلى قريته ليجدها كما هي، باستثناء رجل يبدو غريبًا عن أهلها. مصطفى، الذي يصفه الراوي كرجل في الخمسين من عمره، ذو شعر أبيض كثيف، وبدون لحية، وشاربه أصغر من شوارب رجال القرية، يتسم بالوسامة والغموض.

سؤال الراوي حول مصطفى سعيد يثير فضول القارئ للبحث عن ماضيه الغامض. ذات مرة، خلال حالة من السكر، يتلو مصطفى سعيد شعراً إنجليزيًا بصوت واضح ونطق سليم، مما يجبره على الكشف عن تفاصيل ماضيه الغابر خوفًا من أن يكشف سره.

مصطفى سعيد وُلد في الخرطوم في ١٦ أغسطس ١٨٩٨، وقد نشأ تحت رعاية أم صارمة خالية من أي حنان أمومي. على الرغم من صغر سنه، كان يتمتع بذكاء خارق مكّنه من تخطي مراحل دراسية بسرعة فائقة. تلقى التعليم في القاهرة ثم انتقل إلى لندن للدراسات العليا، حيث أظهر تفوقًا أكاديميًا وأصبح أستاذًا للاقتصاد في جامعة لندن. خلال فترة وجوده في لندن، جذب مصطفى الأنظار بلونه وحكاياته المزيفة، ونجح في الإيقاع بأربع نساء في شراكه، انتحرت ثلاث منهن بينما تزوج من الرابعة بعد مطاردة طويلة. ولكن، بعد

شهرين من الزواج، قتلها بأسلوب ميلودرامي، حيث غرز خنجراً بين نهديها وهي عارية في فراشها.

كان مصطفى سعيد يدفعه الانتقام من الحضارة التي دمرت أفريقيا بالاستعمار إلى ارتكاب أفعاله. النسوة اللاتي كانت علاقته بهن قد توطدت، لم يكنّ يكنّ له الاحترام الذي يكنّه الرجل من جنسهن، بل كان لديهن احتقار عميق نحوه، مما زاد من حقده ورغبته في الانتقام من هذه الحضارة وأهلها. في محاكمته في الأولدبيلي، كان يشعر بنوع من التفوق تجاه المحلفين: "أشعر تجاههم بنوع من التفوق، الاحتفال كان بسببي، أنا الدخيل الذي يجب أن يُبت في أمره" (الرواية، ص٩٧).

في الأولدبيلي، كان المحلفون يتعاملون معه كجثة باردة، وكأنه فقد الرغبة في الحياة، لكن المحلفين وأساتذته الإنجليز قاموا بالدفاع عنه، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات بتهمة قتل زوجته جين مورس. بعد ذلك، بدأ يتنقل من باريس إلى كوبنهاجن ثم إلى دلهي وبانكوك، حتى استقر في قرية ود حامد في شمال السودان. هناك تزوج من السيدة حسنة بنت محمود، وأنجب منها ولدين، وبدأ يعيش كالفلاح البسيط. رغم ذلك، ظل غريباً ولم يستطع التكيف مع حياته الجديدة أو الحضارة المحيطة به.

بعد أن روى مصطفى سعيد قصته للراوي، عاد الراوي إلى الخرطوم ليواصل عمله كمعلم في المدرسة. بعد عامين، علم أن مصطفى مات غرقاً في النيل دون أن يُعثر على جثته. ترك مصطفى للراوي مظروفاً مختوماً جعله وصياً على ولديه وزوجته وتركته، كما ترك له مفتاح غرفته السرية التي لم يدخلها أحد سواه. اعتنى الراوي بالولدَين عناية حسنة، لكن بعد فترة، تواصل معه الشيخ العجوز المزواج ود الريس، وعبر عن رغبته في الزواج من حسنة. حسنة

هي الأخرى هددت بقتل نفسها إذا أُجبرت على الزواج، ومع ذلك تم الزواج بينها وبين ود الريس في غياب الراوي، ورغم مقاومتها الطويلة، فقتلت حسنة ود الريس أثناء الجماع وقتلت نفسها بطريقة بشعة، مما أثار دهشة سكان القرية.

عندما عاد الراوي إلى قريته بعد سماع خبر وفاة حسنة، لم يخبره أحد بتفاصيل الحادثة العنيفة أو أسبابها، باستثناء بنت مجذوب، التي حملت صفات ذكورية؛ دخنت السيجار وشربت الخمر، وتحدثت بصوت مبحوح نتيجة التدخين، وحلفت بالطلاق كما يفعل الرجال. أخبرته بنت مجذوب عن الحادثة واعتبرته مسؤولاً عنها، حيث كانت حسنة ترغب في الزواج منه، وكان رفضه هو أحد أسباب المأساة. عندها، شعر الراوي بقلق عميق وحب غير متوقع نحو حسنة.

عندما فتح الراوي الغرفة السرية في بيت مصطفى سعيد، أصيب بالدهشة مما رآه: كانت الغرفة تشبه مكتب أستاذ إنجليزي تماماً، مملوءة بالكتب الكلاسيكية في مختلف الموضوعات، وجميع الكتب باللغة الإنجليزية، دون وجود أي كتاب بالعربية. عثر الراوي على قصاصات ورق وشذرات ومذكرات وأشياء أخرى، مما أتاح له الاطلاع على أسرار حياة مصطفى سعيد. بعد ذلك، انتابه شعور غامر بالجنون، فهرب إلى النيل عارياً كما ولدته أمه، معتقداً أنه قد يقدم على الانتحار مثل مصطفى سعيد. ولكنه عدل عن هذه الفكرة، وقرر أن يختار الحياة. فقد شعر بوجود أشخاص عدة يجب أن يبقى معهم أطول فترة ممكنة، ولديه واجبات ينبغي عليه أداؤها. لم يعد يعنيه إن كانت الحياة ذات معنى أم لا، فصرخ بكل ما تبقى له من طاقة: "النجدة، النجدة!" وبهذا تنتهي الرواية.

هذا ملخص للقصة، التي تتسم بالتشويق وتماسك الحبكة وتعقيد البناء الروائي. تم سرد القصة بأسلوب متميز يجمع بين الزمن والاسترجاع وتيار

الشعور، مما يضفي عليها معانٍ كثيفة ومدلولات عميقة. ولا يزال النقاد والباحثون يستكشفون دلالاتها الثرية. سأشير بإيجاز إلى بعض القضايا البارزة التي تعزز من قيمة الرواية وتساهم في تميزها وإبداعها.

كما يقول الطيب صالح في حوار مع الصحفية سوسن الديك، نشر في مجلة "العربي" عدد ٥٦٣ عام ٢٠٠٥: "أهم شيء صنعته في الرواية العربية أنك أضأت مناطق مظلمة في الوعي العربي". وقد نجح الطيب صالح في تسليط الضوء على الريف السوداني ووضعه على خارطة الوعي العربي والعالمي، مما ألهم كتاباً آخرين مثل البشير خير من تونس، وغلاب من المغرب، وطاهر وطار من الجزائر، وإبراهيم الكوني من ليبيا، وغيرهم.

الرواية تحمل طابعاً عالمياً في عمقها وأهميتها، لكنها في ذات الوقت تجسد المحلية السودانية بتفاصيلها الغنية: الطبيعة والحيوانات والنماذج البشرية المتنوعة والعادات. تجعلنا الرواية نعيش تجربة حية، حيث نستشعر روائح الفول واللوبيا والنخيل والذرة والحلبة والبخور والطلح والقمح والبصل والشطة، ونرى الفلاحين وهم يعملون في الأرض. تُصور لنا الأرض الشمالية بكل تفاصيلها وعطائها، وكأنها لوحة لا تكتمل إلا بريشة فنان.

الرواية تضيء على مناطق مظلمة في الوعي العربي، وتكشف عن المسكوت عنه في الثقافة العربية. تطرح قضايا هامة مثل الهوية والأصالة والعلاقة بالآخر والمعاصرة والاستعمار والصراع الحضاري بين الشرق والغرب، أو الشمال والجنوب، والاغتراب، والتوازن بين العقل والقلب، وحق تقرير المصير للأفراد والثقافات، وأزمة الهجرة، وصراع التقليد مع الحداثة، وغيرها من المواضيع التي تثير التفكير وتحتوي على عمق يحير القارئ.

المواجهة بين الحضارتين الشرقية والغربية والاستعمار:

يُعبر عنوان الرواية عن التوازي بين الحضارتين، حيث يمثل البطل مصطفى سعيد القادم من الجنوب المتخلف، والذي يسافر إلى الشمال المتقدم. تزداد حدة المواجهة عندما يلتقي مصطفى بأحدهم ويصفه قائلاً: "أنت يشع، لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك، وفتحت فمي لا تكلم، لكنها ذهبت" (الرواية، ص ٣٤). هذا ما قالته إحدى الفتيات اللواتي تعلقن به.

الصراع بين الشمال والجنوب يهيمن على الرواية بطولها، ويتجلى في سياقات عديدة وأحياناً بعبارات صريحة. بعد عودته إلى قريته، يقول الراوي: "عندما جئت إليهم، كانت لحظة عجيبة أن وجدتني بين أهلي، ففرحوا بي واحتشدوا حولي. ولم يمض وقت طويل حتى شعرت كأن ثلجاً يذوب في داخلي، فكأنني دفئت بشمس الحياة في العشيرة، فقدت هذا الدفء زماناً في بلاد تجمد حيتانها من البرد" (الرواية، ص ٥).

يقول الطيب صالح: "رواية موسم الهجرة إلى الشمال كانت تحدياً صارخاً للنظرة الاستشراقية" (مجلة العربي، العدد ... تحت عنوان "وجهاً لوجه" في حوار مع الصحفية سوسن الديك). تعتبر الرواية من أقوى الحجج الفنية ضد الاستعمار. وقد اعترف الأستاذ إدوارد سعيد، المرحوم، بأن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" كانت من المؤثرات القوية التي اعتمد عليها في كتابه "الاستشراق"، الذي تحدى به هذه النظرة الاستشراقية.

يتجلى هذا التحدي بوضوح في الرواية. يقول الراوي عن الحكم الإنجليزي في أفريقيا: "كان مفتش الري الإنجليزي إلهاً يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. كانوا يتصرفون كالآلهة، ويسخرون منا نحن الموظفين

الصغار من أبناء البلاد لجلب العوائد. كان الناس يتذمرون ويشكون إلى المفتش الإنجليزي، الذي كان هو من يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء" (الرواية، ص ٥٧). ويضيف: "الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا، سيظل طويلاً يشعر بالاحتقار نحونا، كالقوي تجاه الضعيف" (الرواية، ص ٦٣). ويقول مصطفى: "إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاج، ووقعقعة سنابك خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر مرت عبر النيل لأول مرة حاملة المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلاً لنقل الجنود. أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول 'نعم' بلغتهم. لقد جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثله من قبل في السوم وفردان، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام. نعم، يا سادتي، إنني جئتكم غازياً في عقر داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ. أنا لست عطيلاً. عطيل كان أكذوبة" (الرواية، ص ٩٨). ويضيف الراوي: "نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي فلاحون فقراء، ولكن عندما أعانق جدي، أشعر بالغنى، كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه" (الرواية، ص ٧٧).

على هذه الشاكلة ينصب النقد اللاذع - في الرواية-على الاستعمار الغربي البريطاني بالتحديد، وتحتد المواجهة بين الشمال والجنوب، حيث يتم إجراء مقارنة بينهما على مستويات متعددة. يمثل الشمال التقدم العلمي والفكري الهائل، ويعتبر مركز جذب الأنظار، ولكنه في ذات الوقت يظل أفقر مقارنة بالجنوب "المتخلف"، الذي يجسد الطمأنينة والهدوء والاستقرار. من جهة أخرى، تعاني ديناميكيات علاقة الشرق بالغرب من توتر عاطفي، حيث تتجلى علاقة التابع بالمتبوع، المستعمر بالمستعمر والعكس.

يمثل الشمال تجسيداً أكبر للاستغلال والقمع، بينما يكون الجنوب هو المستغل والمقموع. هذا الإحساس بالقمع والاستغلال يزرع القمع داخل المقموع، مما يجعله يعيد إنتاجه على نفسه ومن حوله. فيتحول المقموع إلى قامع، وينصب قمعه على من أساء إليه، حتى وإن كان ذلك غير موجه لأشخاص معينين. في حالة مصطفى سعيد، فإن هذا القمع لا يعرف معنى الحب أو الامتنان، بل يترجم إلى كراهية وحياد ورغبة لا تنتهي في الانتقام. لهذا السبب، لم تترك أمومة السيدة روبنسون أثراً في نفس مصطفى سعيد كما لم تتركه مع أساتذته الإنجليز الذين ساعدوه في السودان، فتقبل مساعداتهم بدون شكر، وكأنها واجب يفرضونه عليه (د. جابر عصفور، مجلة العربي، عدد ٥٦٣، عام ٢٠٠٥م).

ترجع جذور هذا الشعور بالغربة إلى العلاقة الغريبة بالأمم الغربية، وهو ما جعل مصطفى سعيد يشعر بالانفصال والتشتت، فلم يكن له انتماء سوى شهوة جسده ورغبته اللاشعورية في إيقاع القمع على النساء اللواتي دخلن إلى دائرته. استمر على هذا الحال حتى جاءت جين مورس، التي تبادلته القمع بالقمع، مما أدى إلى حدوث ثورة عنف مدمرة (د. جابر عصفور، مجلة العربي، عدد ٥٦٣، عام ٢٠٠٥م).

تُعد المعارك الجنسية لمصطفى سعيد شكلاً من أشكال الثأر ضد المستعمر والقامع. ورغم استيعابه لحضارة الغرب، إلا أن هذه الحضارة حطمت قلبه لأنها دمرت قلب أهله وأصابته بمرض عضال منذ زمن بعيد. وقد اتخذ الجنس وسيلة لمعارضة الاستعمار، وادعى لأصدقائه الأفارقة أنه سيحرر إفريقيا بوساطة هذه الوسيلة.

تخصص مصطفى سعيد في اقتصاد الاستعمار، وكشف عن عدم إنسانيته وعدوانه، مستنداً إلى مدرسة الفابيانين التي سعت لتحقيق العدالة

والمساواة والاشتراكية في الاقتصاد، وهي المبادئ التي قادت إلى مقاومة اقتصاد الرأسمالية الاستعمارية التي اقترنت بنهب ثروات الشعوب المستعمرة. ومن ثم، كانت كتب مصطفى سعيد تحمل عناوين مثل: "الصليب والبارود"، "اغتصاب إفريقيا"، والعنوان الأخير يعكس آلية رد الفعل التي تنقل القمع من المقموع إلى القامع (د. جابر عصفور، مجلة العربي، عدد ٥٦٣، عام ٢٠٠٥م – نقلاً عن موقع المجلة الإلكتروني).

علاوة على ذلك، تثير الرواية قضية الصراع النفسي الذي يعانيه الفرد عند تواجده على مفترق الطرق بين الحضارتين. يعيش البطل مصطفى سعيد هذا التمزق والتوتر، حيث يشعر بالاغتراب في كل من الغرب ووطنه، مما يجعله غير قادر على التكيف مع أي من الحضارتين. ومن الطبيعي أن تنتهي حياته التعيسة والمحيطة والعنيفة بنهاية مأساوية بالانتحار. في إطار أوسع، حاول الكاتب من خلال الرواية إبراز التوتر الذي تعاني منه المجتمعات النامية أثناء تحولها من الاستعمار إلى الحرية والاستقلال. كما وتتبلور في الرواية قضايا الهوية والأصالة والاغتراب كقضايا مهمة.

ازدادت خطورة قضية الهجرة في الآونة الأخيرة، حيث شغلت حيزاً ملحوظاً من الاهتمام العالمي. يصف الراوي عودته إلى قريته كأنها عودة إلى الرحم، إلى جذوره. يقول: "نظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير. أنظر إلى جذعها القوي المعتدل، وإلى عروقها المتشبثة بالأرض، وإلى الجريد الأخضر المنسدل فوق قامتها، فأحس بالطمأنينة. أشعر أنني لست ريشة في مهب الريح، بل مخلوق له أصل وجذور وهدف" (الرواية، ص ٦). ويكرر الراوي ذات الشعور في موضع آخر: "الوجوه هناك، كنت أتخيلها قمحية أو سوداء، فتبدو وجوهًا لأناس أعرفهم. هناك مثل هنا، ليسوا أفضل ولا أسوأ، لكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا نبتت في فناء

دارنا ولم تنبت في دار غيرها" (الرواية، ص ٥٣). تؤكد الرواية وتبرز أهمية الجذور والأصول في حياة الإنسان، فمهما تحضر الإنسان أو يتنقل، يظل يحن دائمًا إلى جذوره. كما قال الشاعر العباسي العظيم أبو تمام:

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى
ما الحُبُّ إِلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ
كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَأَلَفُهُ الفَتى
وَحَنينُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنزِلِ

رغم معارضته الشديدة للاستعمار، يتخذ الكاتب أحيانًا موقفًا متصالحًا ومتسامحًا، فيقول: "وكونهم جاءوا إلى ديارنا، لا ندري لماذا. هل يعني ذلك أننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا؟ إنهم سيخرجون من بلادنا عاجلاً أو آجلاً، كما خرج كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة. سكك الحديد، البواخر، المستشفيات، المصانع والمدارس ستكون لنا، وسنتحدث لغتهم دون إحساس بالذنب أو الامتنان. سنكون كما نحن، قوم عاديون. وإذا كنا أكاذيب، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا" (الرواية، ص ٥٣).

ويبرز الوجه الآخر من الأوروبيين في مواقف عديدة، حيث يُوصف بعضهم بالعادلين والمحسنين للإنسانية، خاصة أثناء المحاكمة، إذ كان هناك أوروبيون يدافعون عن مصطفى سعيد، وكان من بينهم والد بنت انتحرت بسبب مصطفى سعيد.

وهذا غيض من فيض، إذ لا يمكن لعاجز مثلي أن يحيط بكافة جوانب الرواية الدلالية المتسعة والمليئة بالكثافة الهائلة في هذه العجالة. تُعتبر الرواية غارقة في الرمزية، مما يجعل تفسيرها متنوعًا حسب وجهات النظر. أما أسلوب بيانها، فهو سحري وجذاب، ينساب كأطياف الشعر في لغة سهلة ورقيقة، مما

يجعل الرواية وكأنها قطعة شعرية متكاملة. لا عجب في ذلك، فالروائي الطيب صالح هو شاعر بقالب روائي.

مآخذ على الرواية:

تناول العديد من النقاد هذه الرواية، وتفاوتت آراؤهم بين الإشادة والانتقاد. من أبرز المآخذ التي وُجهت للرواية هي الإيحاءات الجنسية الصريحة والتصوير المفصل للجنس، مما حمل الرواية ألفاظًا قد تُخدش الحياء وتثير الشهوات. كذلك، هناك مواقف في الرواية يصعب على القارئ قبولها، مثل العلاقة الجافة بين مصطفى سعيد وأمه، حيث جاء في لحظات الوداع بينهما: "لا دموع، ولا قبل، ولا ضوضاء، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معًا، ثم سلك كل منهما سبيله" (الرواية، ص ٢٧).

في هذا الصدد، يقول نزار محمد عثمان: "هكذا في منتهى البساطة، خلافًا لما يُعرف عن السودانيين، لا سيما أهل الريف" (نزار محمد عثمان، من مقال "موسم الهجرة إلى الشمال"، شبكة المشكاة الإسلامية، ١٢/٢/٢٠٠٤، الإنترنت). ويضيف: "نقطة أخرى جديرة بالاهتمام هي الروح المأساوية التي تهيمن على الرواية. فإذا كنا نبرر انتحار آن همند وإيزابيلا سيمور وشيلا غرينوود باعتباره أمرًا شائعًا في أوروبا، فما الذي يمكن أن يبرر انتحار مصطفى سعيد، وانتحار راوي القصة، ثم قتل مصطفى لجين مورس وقتل حسنة لود الريس وانتحارها بعد ذلك؟ لا شك أن هذا التوتر المأساوي لا يمثل البيئة السودانية، بل هو انعكاس لقراءات الطيب صالح في الأدب الإنجليزي المليء بالمأساة" (المصدر السابق).

ويتابع قائلًا: "نقطة أخرى تتعلق بالإباحية المطلقة التي تظهر في سلوك بنت مجذوب، وشربها للخمر، وتدخينها للسجائر، وكذلك إباحية ود الريس وجَدّ الراوي الذي يضحك ويتحدث بحديث ماجن ويشارك فيه، فهل تعكس هذه

السلوكيات أخلاق الريف الشمالي؟ الإجابة هي لا، وألف لا. فهي إن وُجدت، فتكون في حالات شاذة لأشخاص معدودين، ولكن بهذه النسبة وبهذه الطريقة، حيث لا يشغل أهل القرية سوى الجنس، فهذا غير معقول" (المصدر السابق).

ولذلك، مُنعت الرواية في السودان لعدة سنوات، وأُجريت محاكمة أدبية لكاتبها في الخرطوم عام ١٩٨٧، نظَّمها اتحاد الكتاب، حيث اتُّهم بأنه اقتحم المناطق المحظورة وأدخل الجنس إلى القرية. وكان رد الكاتب أنه كان ينقل واقعًا.

في مقاله الذي نُشر في مجلة "حرف ديجيتال" الإلكترونية بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠٢٤ تحت عنوان "بيضة الديك.. الطيب صالح.. كيف تصبح 'عبقريًا' برواية واحدة متوسطة"، يقدم عبد الوهاب داوود مجموعة من المآخذ على رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني الطيب صالح، مركّزًا على النقاط التالية:

العبقرية المزعومة:

ينتقد داوود الوصف المبالغ فيه للطيب صالح كـ"عبقري الرواية العربية"، معتبراً أن هذا اللقب لا يتناسب مع جودة رواياته، خصوصاً "موسم الهجرة إلى الشمال"، التي يرى أنها رواية متوسطة الجودة.

تمجيد الاستعمار:

يشير داوود إلى أن الرواية تمجد الاستعمار بطريقة غير مباشرة من خلال شخصية مصطفى سعيد، الذي يستخدم النساء البريطانيات لتحقيق نوع من الانتقام والغرور الشخصي. ويعتبر داوود أن هذا يقدم صورة مضللة عن

طبيعة الاستعمار، مستشهداً برأي الروائي عبد الرحمن منيف الذي وصف الرواية أيضاً بأنها تمجد الاستعمار.

الفحولة الجنسية:

يرى داوود أن التركيز الكبير على الفحولة الجنسية لمصطفى سعيد يسيء إلى الصراع الثقافي والسياسي في الرواية، ويحولها إلى مجرد قصة تُعنى بإشباع الغرور الذكوري.

الجودة الأدبية:

ينتقد داوود بناء الرواية ولغتها، مشيراً إلى وجود ركاكة في الصياغة وعدم انسيابية في الجمل، مما يجعل النص صعب الفهم.

الأصل اللغوي للرواية:

يشكك داوود في أن الرواية كُتبت أصلاً باللغة الإنجليزية ثم تُرجمت إلى العربية، مستنداً إلى تركيب الجمل الذي يبدو أقرب للغة الإنجليزية منه للعربية، مما يؤثر على طبيعة النص وجماليته.

أثر النقاد والمبالغات النقدية:

يشير داوود إلى أن النقاد في الستينات، مثل رجاء النقاش، بالغوا في تقييمهم للطبيب صالح وروايته، مما ساهم في تضخيم مكانته الأدبية دون مبرر حقيقي.

السياق الثقافي والسياسي:

يرى داوود أن التقييمات المبالغ فيها لأعمال الطيب صالح تعود جزئيًا إلى الرغبة في تقديم منجزات ثقافية تعزز صورة المجتمعات العربية في فترة ما بعد الاستعمار.

باختصار، يقدم عبد الوهاب داوود نقدًا شاملًا لرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" من زوايا متعددة، معتبراً أن الرواية نالت تقديرًا يفوق قيمتها الأدبية الفعلية.

ومهما كانت المآخذ على الرواية، مبررة أو غير مبررة، من المهم ملاحظة الروائي العربي السوداني الطيب صالح قد استطاع أن يفرض نفسه على اهتمام المثقفين في الشرق والغرب برواياته، ولا سيما بروايته "موسم الهجرة إلى الشمال". ويرجع جزء من شهرة الرواية إلى زمن صدورها في سبتمبر ١٩٦٦، حيث كانت الأوضاع العربية في حالة بلبلة، ووجد الكثيرون في الرواية انعكاسًا لما يشعرون به (مجلة العربي، "وجهًا لوجه"، العدد ٥٦٠، ٢٠٠٥، مأخوذ من الإنترنت).

وفي الختام، أود أن أستشهد بكلمات صبحي غندور: "هو نموذج يجمع في شخصيته بين الوطنية السودانية والعروبة الثقافية، وبين الإسلام الحضاري وعالمية الإسلام الحر. إنه المثقف العربي الذي لم تحجب عنه هموم السودان والأمة العربية. لم ينخدع بتقدم الشمال الأدبي، بل رأى في الغرب ساحة لإبداع الفكر العربي المستنير. إنه الطيب صالح، الذي يجمع في شخصيته وكتابته بين الكلمة الطيبة والعمل الصالح" (صبحي غندور، مجلة الحوار (HTTP://WWW.ALHEWAR.ORG .

AL - TAYEB SALEH OCTOBER 1995 HTM)

مراجع المقال:

١. الدكتور حمدي السكوت، الرواية العربية ببلوغرافيا ومدخل نقدي (١٩٩٥-١٨٦٥) ، المجلد الأول مقدمات ومدخل نقدي، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة ٢٠٠٠م.

٢. الطيب صالح: "رواية موسم الهجرة إلى الشمال " ، الطبعة الرابعة عشرة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م.

٣. محمد شاهين: الطيب صالح: حوارات في الفكر والثقافة والإبداع، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، سنة النشر ٢٠٢٣.

٤. محمد مصطفى بدوي: تاريخ موجز للأدب العربي الحديث (باللغة الإنجليزية) مطبعة كلاريندون، اكسفورد، ١٩٩٣م.

٥. مجلة العربي أعداد ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٤ لعام ٢٠٠٥م.

٦. بعض المواقع الانترنيتية.

- https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/8866
- https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/8650
- https://www.haarf.org/191

.... ❖❖❖❖❖ ....